

في التوحيد والشرك وأثرهما في الحياة

تأليف

الشيخ نافع شامي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ . الرحمنِ الرحيمِ . مالكِ يومِ الدينِ . إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ إهدنا الصراطَ المستقيمَ . صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ غيرِ المغضوبِ عليهِمْ ولا الضالِّينَ) .

مقدمة

من المسلم به أن الإنسان مخلوق قابل للتطور والتغير ، فقد يرتقي ويسمو ، وقد يهبط ويتدنى ، وقد يكون راقياً من جهة ، هابطاً من جهة أخرى ، فيجتمع فيه الضدان . وقد يكون بما يقوم به من صفات محموداً في نظر قوم ، مذموماً عند آخرين . ومرد ذلك كله إلى اختلاف النظرة لنوعية التربية . «مفهوم التربية هو التنمية ، والتنمية لاتنحصر في ناحية واحدة من نواحي الحياة ، وإنما تشمل جميع النواحي القابلة للنماء في الإنسان ، والاشتغال بتنمية بعضها دون بعضها الآخر يؤدي الى تبلبل المجتمع وتناقضه ، ويوقع المجتمع في فوضى تعوقه عن النجاح المطلوب ، وتفوّت عليه كثيراً من المطالب المرغوبة ، والنتائج المحبوبة .

فالمجتمع الذي يستهدف النماء المادي ، ويعنى بتوجيه أفراده إلى الترف والبذخ ، ويهتم كثيراً في تذليل سبل العيش ، ويَضعف اهتمامه بالنماء

الفكري أو الروحي ، أو الصحي أو الاجتماعي أو الأخلاقي لا يمكن أن يشابه المجتمع الذي يستهدف الناحية العلمية مثلاً ، ويحصر جل اهتمامه في تثقيف أبنائه وتعليمهم، وهكذا تظهر في كل مجتمع ظاهرة تدل على نوعية تربيته ودرجة اهتمامه بها . وقد تشترك المجتمعات كلها أو بعضها في ظاهرة أو أكثر وتكون بارزة فيها بروزاً متفاوتاً ، وذلك بنسبة ضعف الوسائل أو قوتهـــا .

فمن الظواهر المشتركة بين جميع المجتمعات البشرية في زماننا ظاهرة الاتجاه المادي ، فما من أمة إلا وتبذل أقصى اهتمامهـــا لتوسيع ثروتها ، وترفيه أبنائها ، ولكن السبل إلى ذلك لبست واحدة .

هناك أمة أطلقت العنان لأبنائها في إحراز المشتهيات دون تقييد بحلال أو حرام ، وأخرى اعتمدت في ذلك على العـــلم الاقتصادي الحر الطليق من قيود الحل والحرمة ، وثالثة جعلت مصدر الاتجاه المـــادي بعض العقائد والمبادىء الوضعية . ورابعة اتخذت مطية لذلك بعض تعاليم الديانات السماوية المحرفة ، وخامسة قالت بإباحة كل ما يوصل إلى المادة ، غير عابئة بالنتائج الوخيمة التي تنتهي إليها حياة الامـــة .

وسادسة وهي أعلى الأمم كعباً وأسماها في كل نواحي الحيـــاة ، وأرقاها نظاماً يؤمن لمطبقيه سعادة الدنيا والآخرة ، ويضمن لهم القوة والعظمة والسيادة ، ألا وهي أمة محمد النبي الامي صلى الله عليه وسلم الذي ربّى أتباعه على عبـــادة الله وحده ، والانصياع لتعاليمه التي جعلتهم

أحراراً حقيقيين ، ووصلت قلوبهم بالله ، وصاغت مشاعرهم بالنـــور الإلهي المنزل إليهم ، ووحدتهم بعد فرقة وزادتهم قوة على قوة ، ومهدت لهم سبل الحياة العزيزة الكريمـة . وجعلتهم خير أمة أخرجت للناس . وكيف لا يكونون كذلك ، وقد جعلوا الله شهيداً عليهم في سائرأحوالهم واعمالهم ؛ لإيمانهم بأن الله يراهم ، ولا يغفل عنهم طرفة عين ، كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف : « ... الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تراه فانه يراك » . [1]

وسترى في فصول هذه الرسالة كيف أن التربيـة الإسلامية وفق المخطط الذي رسمه الله لعباده تضمن لمن يتحقق بها الفوز والنجاح والقوة الكاملة ، والتفوق على سائر الأمم في جميع نواحي الحياة ، وعلى أرقى المستويات ، مصـــداق قوله تعالى : (إن هـــذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ...) .

غرة رمضان عام ١٣٩٦ هـ

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ، ومسلم من حديث عمر في حديث جبريل المعروف .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هـادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد: فإني أبتدىء رسالتي هذه ببيان الغاية المثلى التي يجب أن يتخذها الصادقون، ويسعوا بكل ما يستطيعون للوصول إليها .

ان الله تعالى الذي والى إرسال رسله إلى البشر ، دائبين في دعوة الناس إلى ما أرسلوا به إليهم ، قد جمع ما فرقه على رسله مما يحتاجه البشر من تربية في شريعة الإسلام ، وكتب لها الخلود ، حيث جعلها شاملة صالحة إلى أن يرث الأرض ومن عليها

وقد أخبر الله نبيه محمداً ﷺ بالغاية المثلى التي ارتضاها للناس ، وكلفه أن يدلهم عليها ، ويمكنهم من أسباب بلوغها ، فقال جل شأنه :

(الر . كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذي له ما في السموات والأرض ،

وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا . أولئك في ضلال بعيد)[١] .

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يلمس الإشارات العظيمة إلى طريق الفوز وإلى أسباب النجاح ، ويستبين منها وسيلة النجاة .

إنها تحكم على الكتاب (القرآن الكريم) بأنه كتاب جامع مشتمل على أمثل التعاليم التي يخرج متبعوها المتحققون بها من الوهن والضعف ، من الفقر والحاجة ، من الجهل والفساد ، من كل ما هو من الأحوال الاجتماعية الفردية والعامة ، الى القوة والغنى والعلم والنظام ، إلى كل ما هو هدى ونور من أوضاع البشر .

إنه كتاب موصوف بأنه هدى لمن أراد الهداية ، ونور لمن أراد الاستنارة ، إنه كتاب يرسم الغاية البعيدة لمتبعيه حتى لا تفوتهم دونها غاية ، ويوحد سلوكهم لتلك الغاية وفق المخطط الإلهي المرسوم فيه ، ويضع في أيديهم أسباب القوة والعظمة الحسية والمعنوية ، وهي أسباب بلغت من السمو والدقة والأثر الفعال حداً صانها أن تُنال من أهل الجور والطغيان وعبدة الطاغوت .

وميزان الارتفاع والانخفاض إنما يبدو واضحاً في درجة التعلق بهذه الدنيا ، فهي برزخ يتقدم برزخ الآخرة ، وهي ميدان حافل بأنواع اللذائذ والشهوات مليء بالمغريات ، والمرء في هذا الميدان مخير في نزوعه نحو الخير أو الشر ، نحو النظام أو الفوضى ، اقرأ لتذكر هذا قوله تعالى :

---

(١) سورة إبراهيم الآيات : ١ — ٤ .

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور) . (الملك : ١)

فالإنسان في هذه الحياة الدنيا مخلوق قابل للصعود وللهبوط ، قادر على أيها شاء ، مستطيع أن يعيش في ظلمات ، وفي أنوار ، متمكن من وسائل العيش ، ومن أسباب الانهيار .

فهناك رسل تأخذ بيد الإنسان نحو الخير ، وهناك شياطين تجتاله نحو الشر . (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات) (البقرة : ٢٥٧) .

وقد خاطب الله رسوله محمداً ﷺ مبيناً له صفة الكتاب الذي أنزله عليه والغاية من إنزاله وإرساله به ، فقال : (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) . فاللام هنا لبيان الحكمة التي أنزل الكتاب من أجلها ، وأرسل الرسول لتحقيقها ، حتى إذا أراد الإنسان الهداية تمكن من بلوغها بما يسّر الله له من أسباب .

وكأن الله جلت قدرته حين وضع الإنسان في وسط الكون الذي خلقه ، وجعل من فوقه سبع سموات ، ومن تحته سبع أرضين ، كأنه يقول له : فقد مكنتك من الصعود ومن الهبوط ، وآتيتك لكل منها سلماً ، وتركتك بالخيار ، فاصعد إن شئت وإن شئت فاهبط . واقرأ لتعرف هذا المعنى قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك

مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون) (الأعراف : ١٧٥)

والتعبير في الآية : (ولو شئنا لرفعناه بها) يوحي بترك الحرية للإنسان إذ لم يشأ الله رفعه قسراً .

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقيَّة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب [١] ، أمسكت الماء ، فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة إنما هي قيعان[٢] لا تمسك ماءً ولاتنبت كلأ ، فذلك مثل من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

واللام المشار إليها في الآية السابقة (لتخرج الناس ..) هي لبيان الغاية والمقصد من الإنزال والإرسال . ومن هذا القبيل قوله تعالى في سورة الرعد آية ٣٢ : (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم ؛ لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك ، وهم يكفرون بالرحمن) فإرساله علة وسبب لتلاوة ما أنزل عليه ، وهذه التلاوة أو هذا المتلو يمكن المتلوّ عليهم من الانتفاع به إذا أرادوا

---

(١) أجادب جمع جدب بفتح الدال على غير قياس وهي الأرض الصلبة التي لاينضب منها الماء .

(٢) قيعان جمع قاع وهو الأرض المستوية الملساء التي لاتنبت .

الانتفاع . ولا يمنعهم الله منه إذا أرادوه ، لأنه جل شأنه ييسّر كل إنسان لما أراد (فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) .

ومثل ذلك قوله تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) فالله إذاً يأذن لمريد الهدى بالاهتداء ، ولمريد الضلال بالضلال ، وهذا هو الذي ينبغي أن يفهم من قوله في الآية الكريمة : (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) . وإن تمام الآية يوحي بحرية الانسان في اختياره حيث يقول (وويل للكافرين من عذاب شديد) وأكد هذا الاختيار باستحبابهم الحياة الدنيا وترجيحها على الحياة الآخرة ، وتبني الدعوة إليها ، والصد عن سبيل الله ومحاولة جعلها سبيلاً معوجة ، فقال جل شأنه : (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد) .

نعم إن الذين تعلقوا بالدنيا إنما طلبوا أقصر غاية ، ففاتهم الخير كله ، على العكس من الذين يطلبون أبعد غاية ، وهي رضاء الله فإنهم يجمعون أطراف الخير ، ويحوزون كل غاية عجلى إلى الغاية المثلى وتفصيل الأمر كما يلي :

ـ استهداف رضاء الله فيه سعادة الدنيا والآخرة ـ

ـ وفيه السيادة في الدنيا والفوز بالنعيم في الآخرة ـ

إن دين الاسلام بتعاليمه القوية وتشريعاته الحكيمة وتربيته المستقيمة

قد قوّى معتنقيه وأهّلهم لوراثة الأرض ، حيث انقلبوا بفضل الله خير أمـة يشير إلى ذلك قوله تعالى : (إن هـــذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً) (الإسراء : ٩-١٠) .

وتوضيح هذا الإجمال هو ان الانسان لا بـد له من هدف في حياتـــه يتوجه إلى تحقيقه إلا أن يكون معتوهاً يعيش بدون هدف .

ومما لا شك فيه أن الإيمان بهدفٍ ما يكيف سلوك صاحبه ، إذ لكل هدف سلوك يناسبه ، فمستهدف بـــلدة في المشرق لا يسلك اليها طريقاً نحو المغرب ، ومستهدف العلم لا يبلغه بتعاطي التجارة أو الصناعة ، وأعني بالهدف الغاية التي يسعى الإنسان لنيلها قربت أو بعدت . ومتى بلغ غايته وقف عن سعيه ، ولذلك كان أهم مطالب التربية الصحيحة تمييز الغاية من الوسيلة ، وكان من أكبر واجبات المربين نصب الغايات الشريفة أمام النشء الصاعد ، وحملهم على الإيمان بهـا ، والعمل لتحقيقها . ولذلك فإن خطأ المربي في تعيين الغاية لولده أو تلميذه يكون سبباً في إفساده أو فشله في حياته .

ومن الأخطاء الفادحة التي ارتكبهـــا بعض المربين أنهم ركزوا في أذهان النشء الصاعد أن العلم وسيلة للوظائف والمراكز الحكومية ، فغدا الطالب يتعلم لينال الشهادة التي تؤهله للوظيفة ، وبحصوله عليهـــا يتوقف عن مواصلة الدراسة ، وبذلـك جعلوا طلب العلم أداة عيش ، بينما هو في الحقيقة غاية ، وسيلتها الحياة ثم العلم وسيلة لغاية أكبر ، وهي مرضاة الله تبـــارك وتعـــالى .

وقال النبي ﷺ : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » رواه أحمد وأبو داود وغيرهما ، وصححه العلامة الألباني في « صحيح الجامع – ٦٠٣٥ » .

وقيل لعلي رضي‌الله عنه : لو علمت أنه بقي في عمرك ساعة ، ما كنت تصنع فيها ؟ فقال : أطلب العلم .

وقد سئل قتادة رحمه الله تعالى : إلى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ فأجاب : ما دام يحسن به أن يعيش يحسن به أن يتعلم .

ولو ربي النشء على الإيمان بأن العلم غاية ، وسيلته الحياة لواصلوا طلبه ما داموا على قيد الحياة .

ومما يدل على الخطر العظيم الذي ينجم عن عدم الإخلاص وإرادة الدنيا بعمل الآخرة قول الرسول ﷺ : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به ، فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعملت به ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت فيك القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسّع الله عليه وأعطاه أصناف المال ، فأتي به ، فعرفه نعمه فعرفها ، فقال ما عملت

فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيهـــا لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . رواه مسلم (٤٧/٦) والترمذي وحسّنه ، وغيرهما عن أبي هريرة .

ومن يمعن النظر بدقة في هذا الحديث الشريف يعرف بُعد المسلم اليوم عن حقيقة التوحيد التي لا يكتسب رضاء الله إلا بها . فإذا كان ميل القلب إلى طلب الثناء والمدح من وراء العمل الصالح الذي يفعله طلباً لرضاء الله قد أودى بصاحبه إلى جهنم ، فكيف بمن يستهدف العمل لنتائجه التي يقدرهـــا أو يتخيلها عازفاً عن رضاء الله ، غيرعابىء بـــه ، همه أن يحصل على حطام الدنيا أو المزيد منه ، ولو بأسباب محرمة ، أيبقى مسلماً صالحاً ،أم قادته غايته الدنيوية إلى الهاوية؟ وما دام للغاية المعتقدة ذلك الأثر العظيم في السلوك ، فقد وجب على العاقل أن يعرف ما يصلح غاية ، وما لا يصلح مما تعارف الناس على استهدافه وطلبه ، والتوسل لنيله والسعي للحصول عليه .

— ليس شيء من مطالب الدنيا يصلح غاية —

إن ما يستهدفه الناس ويتوخون بلوغه من مطالب الدنيا يفوق الحصر كالمناصب والجاه والسلطان ، والمال وأنواعه والزواج وغير ذلك من أغراض الحياة الدنيا ، وهذه المطالب لايصلح واحد منها أن يكون هدفاً لأنها كلهـــا غايات قريبة وضيقة ، ومفضية إلى التنافس المشين والخصام البشع ، وتلك هي خصائص سائر المطالب والأهداف الدنيوية ، فالمطلب الواحد لا يتسع لكل

الراغبين فيه ، فيضطر طالبوه للتزاحم عليه والتخاصم من أجله ، وتكون النتيجة أن تسود الفوضى في المجتمع الذي يتربى أفراده على استهداف الغايات القريبة ، فيؤول أمرهم إلى الوقوع في ظلمات الأخلاق السيئة ، وإلى الضعف المادي والمعنوي وإلى الانهيار الخلقي ، ومعلوم أن مطالب الدنيا كلها أهداف وغايات قريبة ، والتربية القوية تنحصر في استهداف أبعد الغايات ، وهي طلب الآخرة ويمكن التعبير عنها بطلب رضاء الله .

ـ اتخاذ رضاء الله غاية ـ

ويتساءل أصحاب هذا الهدف عن خصائصه ، فيعلمون أنه يجمع ولا يفرق ، ويقوي ولا يُضعف ويرتفع بأصحابه إلى الكمال الإنساني .

ذلك لأن رضاء الله يتوفر لكل عبد بذل إمكانياته وطاقاته وفق مارسمه الله في شرعه لعباده .

فباذل الدرهم في سبيل الله من أصل درهمين يملكهما يحظى برضاء الله كما يحظى باذل الألف من ألفين يملكهما إذا اتحدت حيثيات البذلين ، وبذلك ينعدم التنافس المشين والتخاصم المهلك . يفهم هذا من قوله ﷺ : سبق درهم مئة ألف درهم ... أخرجه النسائي في كتاب الزكاة ، وغيره وحسّنه الألباني في (الجامع ـ ٣٦٠٠) .

والمستهدف رضاء الله يتحراه في كل عمل وفي كل قول ، وفي كل حركة وسكون ، فيرى نفسه أمام غاية لا تدع له مجالاً للتقصير في عمل الدنيا ، فلو فرض أن عنده حماراً فأتعبه أو أجاعه ، فإنه يشعر بحرمانه من رضاء الله

بنسبة إساءته إلى حماره . يشير إلى هذا توصيات الرسول ﷺ بالحيوان مثل حديث : اركبوا هذه الدواب سالمة ، واتدعوها سالمة . وحديث : إن جملك يشكوك بأنك تجيعه وتدئبه قاله للأنصاري صاحب حائط حين دخله ، فرأى فيه جملاً هزيلاً متعباً تسيل عيناه .

وحديث : لا تتخذوا هذه الدواب كراسي . . .

والصحابة الذين عرفوا هذه التعاليم كانوا يُنَقّون العلف لخيولهم من الحصا والتراب .

وكذلك لو كان للمسلم أرض فأهمل استثمارها يشعر بأنه حرم من رضاء الله عنه بنسبة إضراره نفسه ومجتمعه بذلك الإهمال. يشير إلى ذلك قوله ﷺ: من كانت له أرض فليزرعها ، أو ليحرثها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضه .

أخرجه الشيخان

فإذا تربّى المسلم على أن يطلب رضاء الله فيما يأتي وفيما يذر ، وفيما يقول وفيما يسكت عنه وفق المخطط الذي رسمه له الله في شرعه كان ذلك الإنسان مثالياً ، والأمة التي يكون رضاء الله مطلب أفرادها لايمكن أن يوجد في الدنيا أمة أفضل منها في كل شأن من شؤون الحياة ؛ ذلك لأن رضاء الله يكون وقفاً على المؤمن المتقي الشاكر الذي يأخذ بالأسباب فيحظى بالمسببات، وإذا التمست البرهان على صدق ما ذكر فإنك تجده واضحاً في شريعة الإسلام كتاباً وسنة، ونصوصه كثيرة نقتضب منها مايلي : أما من السنة فقد قال ﷺ : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي

راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله الفقر بين عينيه وفرق عليه شمله ، ولا يأتيه من الدنيا إلا ما قدّر له » رواه الترمذي (٢/٧٦) وابن ماجه ، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة ـ ٩٩ و ٩٥٠٠) .

وفي الحديث القدسي : « ابنَ آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت يديك شغلاً ، ولم أسد فقرك » وأما من القرآن فحسبك قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة ، وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً (وما تضمنته الآية السابقة في مقطعها الأول جاء مثله واضحاً في قوله تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) .

فأي صراحة بإفلاس مستهدف الدنيامن أسباب القوة والعزة والكرامة ، وحظوة مريد الآخرة ومستهدفها بالنماء والسعة ، وأسباب الخير كله أعظم مما حملته هذه الآية والأحاديث قبلها ؟

وبهذا علم أنّ أقوم الطرق لكسب الدنيا بعزة ، ونيل السعادة في الدنيا والآخرة هو التحرر من العبودية للدنيا ، والتحقق التام بالعبودية لله وحده ، بحيث يعمل ليرضى الله ، ويتكلم ليرضى الله ، ويسكت ليرضى الله ويتحرك ليرضى الله ويسكن ليرضى الله ، فرضاؤه هو الغاية القصوى ، ومن توخاه لا يخشى سواه ، ولا يرجو غيره ، ولا يركع ويسجد ، ويخفض الرأس

إلا لله . لا يخاف على ما عنده وفي حوزتـه أن يفوت ، لأنـه جمعه لينفقه في مرضاة الله ، ولا يخاف أن يصاب أو يؤتى من خارجه لأنه يؤمن بقدر الله ، فهو إذن يخاف الله وحده ويخشاه ، ولا يخاف سواه ، مصداق وصف الله له في قوله : (إن الانسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين ..) ويصرف ما أنعم الله به عليه من النعم المعنوية والمادية فيما خلق له ، فيصرف نعمة البصر مثلاً في التأمل والتفكر والتعلم بدلاً من صرفها في التمتع بالمناظر المحرمة ، أو إهمالها ، ويصرف نعمة الأرجل في السير الى ما يرضي الله من عمـــل وعبادة ، وإعانة في الخير ، ويصرف أيضاً نعمة المال في العمل الذي ينميه ، ويُرضي بإنفاقه ربَّه ، وهكذا يكون بذلك من الشاكرين المستحقين من ربهم الزيادة . مصداق قوله تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم ...)

وقد أدرك العلماء حقيقة الشكر وأهميته ، فعرّفوه بأنـه : (صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خُلق لأجله) والزيادة من الله للمتحقق بهذا الشكر أمر لا يتخلف ؛ لذلك اشترط الله لهـا الشكر ، وأكد وقوعها بلام التأكيد ، ونون التأكيد ، فقال : لأزيدنكم .

هكذا يربي الإسلام ذويه ، فتنقاد لهم الدنيا ، ويصلحون لوراثة الأرض وحدهم دون سواهم وهم الذين عناهم الله في قوله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) .

لأنـه لا يعقل أن يوجـد في البشر أصلح من عباد الله الذين يستهدفون

رضاه اعتقاداً وقولاً وفعلاً، وقد أعلن الله وعده لعباده الصالحين بالنصر والتأييد، والاستخلاف في الأرض حيث قال جل شأنه : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) وهم الذين حماهم الله من مكايد الشيطان ، وأعلن ذلك بقوله : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) .

ومن أراد أن يعرف أوصاف هؤلاء العباد فليقرأ أواخر سورة الفرقان : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ...) إلى آخر السورة .

والآن يمكن لمن أمعن النظر فيما ذكرنا أن يقتنع بأن مستهدف الحياة الدنيا ، ومؤثرها على الآخرة قد وقع في حبائل الشيطان ، وابتعد عن توحيد الله ، وخالط إيمانه الشرك ، وصدق عليه وصف الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً ، ومن أجل ذلك حكم الله عليهم بقوله : (أولئك في ضلال بعيد) في ختام الآية التي بدأنا البحث بها . ومثل ذلك يفهم من قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً) وورد أنه « لما بعث النبي ﷺ بعث إبليس جنوده، فقالوا : لقد بعث نبي وأخرجت أمة فقال : أيحبون الدنيا ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كانوا يحبونها ما أبالي أن لا يعبدوا الأوثان ، إنهم لن ينفلتوا مني ، وأنا أغدو عليهم ، وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، وإمساكه عن حقه ، والشر كله لهذا تبع » .

وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً ، لكن معناه صحيح مستقيم يشهد له قوله ﷺ : « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط . . » رواه البخاري . فيا ويل من اتخذ الدنيا غاية ، فكان عبداً لها ، ويا سعادة من استهدف الآخرة متوخياً رضاء الله ، فعاش عزيزاً ومات كريماً ! نسأله تعالى أن يجعلنا من السعداء إنه سميع مجيب .

– موقف المسلمين من رسالة الحق –

١ – معرفة الحق :

لا بد لنا قبل استعراض موقف المسلمين من رسالة الحق أن نقدم كلمة عن الحق ، فقداختلف الناس فيه ، ولم يتفقوا لاقديماً ولاحديثاً ، و (كل حزب بما لديهم فرحون) .

فهل الحق من الأمور الاعتبارية التي مردها إلى الذوق الذي تتحكم فيه الألفة والعادة حتى وقع الاختلاف فيه وعليه ؟ .

أم هو من الأمور التي تختلف جوانبها ، فيقسمها كلٌ وفق ما يرى منها ؟ أم هو من الأمور التي يدق الفكر البشري عن إدراكها ، فيذهب كل فيه مذهباً يمليه عليه اتجاهه الفكري ؟

ولعلي أكون قد وفقت إلى تعريفه تماماً إذا قلت : إن الحق اسم يقع على أوساط الأمور طلباً للاعتدال فيها الذي لاينال بغير هذا التوسط في الأمور كلها. ولتوضيح هذه الفكرة نذكر المثال التالي ، فنقول الشجاعة وسط بين

الجبن والتهور ، وبمقدار ما ينحاز المرء عن الوسط إلى واحد من هذين الطرفين يلحقه اسم الجبان أو المتهور ، فالحيد عن الوسط ولو قليلاً يخرجه عن الحق ، ويوقعه في الباطل ، وأهل الباطل يتفاوتون فيه .

ومن تتبع تعاليم الإسلام وجدها تقف بأهلها على أقوم السبل ، وتنحو بهم نحو الخير ، حتى كانوا بها خير أمة أخرجت للناس ، وكانوا بها أعدل أمة : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

وطلب أوساط الأمور لا ينحصر . لأن الأمور التي تجد للناس غير منحصرة ، وهذا هو السر – والله أعلم – في فرضية قراءة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة المتكررة في اليوم والليلة ، فرضاً كانت أو نفلاً . لاشتمالها على طلب الهداية من الله العليم إلى إصابة الحق في كل شأن ، وهو المعبر عنه بالصراط المستقيم . وبهذا يتبين أن معنى (اهدنا) على حقيقته أي طلب الهداية الكاملة في كل ما يجدّ من الأمور حتى يكون متوسطاً فيها ، وليس كما قال بعض المفسرين هو (ثبّتنا) معللاً ذلك بأن المسلم الذي يقرأ الفاتحة مهتدٍ ، ولا معنى لطلبه الهداية ، وهو عليها حيث يكون من تحصيل الحاصل .

فالمسلم إذاً بحاجة دائمة إلى أن يعرف الحق فيما يستقبله من الأمور ، وأن يعرف الطريق إليه حتى يصيبه . ولذلك يبقى دائماً ضارعاً لله أن يهديه الصراط المستقيم . والأمور التي يستقبلها الإنسان في حياته كثيرة ، ولها جيثيات مختلفة .

ولنأخذ مثلاً ما يباح للضرورة من المحرمات ، فيجب أن يصيب منه ما تندفع به الضرورة ، فلو جاز لإنسان أكل الميتة فلا يباح لهمن ذلك إلا القليل الذي يدرأ به خطر الموت .

ولنأخذ مثلاً آخر من الأمور المتشابهة ، فالحق يكون في الجانب الذي فيه احتياط حيث يكون هو الحق . فالوقوف مثلاً على أبواب الحوانيت أو في الطريق أمر جائز ، ولكنه ممنوع في حق من يعرف من نفسه العجز عن إعطاء الطريق حقه : من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وغض البصر وهداية الضال ، وإعانة من يصادفه من ذوي الحاجات ، ويكون الحق الواجب اتباعه هو عدم الوقوف على باب الحانوت بدون داعٍ أو في الطريق .

– كلمة التوحيد وتفرّد الله تعالى بما وصف نفسه –

كلمة التوحيد هي التي تعلن حصر العبادة في الله ، وتنفيها عما سواه ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، وقد سماها الله تعالى كلمة التقوى في قوله عز من قائل : (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليما) الفتح : ٢٦ . وإن أصدق تعريف للتوحيد هو الذي اشتملت عليه سورة الإخلاص : (قل هو الله أحد اللهِ الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

– التوحيد وسط بين باطلين –

وقد جاءت حقيقة التوحيد وسطاً بين باطلين متعاكسين : الإلحاد والاشتراك . وهي أكبر أهداف الاسلام ، ومعناها التحقق بالعبودية لله وحده

فلا نظراء ولا أكفاء، ولا أنداد ولا زوجة ولا أولاد : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له) .

ويقتضينا هذا الهدف أن نمحض أقوالنا وأعمالنا ونيتنا لله ، فنشهد بألسنتنا أن لا إله إلا الله ، ونتوجه بعبادتنا له وحده ولا نريد بأعمالنا إلا وجهه (إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (الزمر ٢ ، ٣) .

وان العبودية كلية واحدة من كليات هذا الدين ، لا تقبل التجزيء بوجه من الوجوه ، فكما لا يصح أن يؤمن المسلم بآلهة مع الله كأن يقول : لا إله إلا الله ورسولهُ أو وعبده فلان ، كذلك لا يصح أن يقول : أصلي لله ولرسوله أو لعبده فلان ، أو ينوي ذلك بقلبه ،ومثله أيضاً أن ينذر لله ولرسوله؛ أو يحلف بالله وبرسوله ، أو يدعو الله ورسوله ، فإذا فعل فقد أشرك مع الله إلهاً آخر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومن هذا يعلم خطأ بعض الجهال في نذرهم الولي الفلاني إن شفى الله مريضهم . ومثله سواء بسواء دعاؤهم الولي أن يشفي مريضهم ، أو يخلصهم من سوء أصابهم . وواجب العلماء تنبيهم وتفهيمهم خطر ذلك ، ومنعهم من هذا الخطأ الفادح. ولا ينجيهم منه قولهم :أننا نعلم بقلوبنا أن الله هو الفعال لما يريد، إذ لا فرق بين النذر والصلاة من حيث كونها عبادة ، ولا أحد يقول : إن من يقول أصلي لله وللرسول أربع ركعات ، أو ينوي ذلك بقلبه هو مسلم ،

ومثله من يقول : أنذر لله وللرسول ، أو نوى ذلك بقلبه ، فلماذا يعذرونه في الدعاء والنذر ، ولا يعذرونه في الصلاة ؟ ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ .

- إلباس الكفر لباس الحق -

وأنا لا أعجب كثيراً لصدور مثل هذا الكفر من العامي الجاهل ، ولكن لا ينقضي عجبي ممن يسمّون علماء ، ويتزيون بزيهم ، أن يصدر عنهم مثل هذا الكفر ، حتى نظموه شعراً ، وراحوا ينشدونه في مجالسهم ، وحلقات أذكارهم ، وموالدهم وحجتهم في تبريره أن الناظم له مسلم ، ومن العلماء في زعمهم ، وأن آباءهم رضوا به ، وتناقلوه عنهم ، وذلك مثل قولهم :

يا إمام الرسل يا سندي	أنت باب الله ومعتمدي
فبدنيـاي وبآخرتي	يارسول الله خذ بيدي
ما يبدلني عسري يسراً	إلاك يا تاج الحضرا
فبأهل البيت وبالعشرا	سهّل يسرْ حل العقد

فانظر يا أخي المسلم في هذه الأبيات نظرة فاحص مدقق لتعلم من أسلوبها الركيك ، وألفاظها العامية أن ناظمها عامي جاهل غير عالم زعموا ثم انظر في معناها ، ودلني على حقيقة التوحيد الكبرى فيها ، أهي في جعل منشدها رسول الله ﷺ معتمده المطلق ، أو معتمده مع الله ، ولكن الأولى هي مقصده الأصح ، لأنه يطلب منه العون بأن يأخذ بيده في الدنيا والآخرة ، فأين الله إذن؟ أم هي في جعله رسول الله ﷺ المقتدر الأوحد على تبديل عسره باليسر؟

وكأنه لم يكفه هذا الغلو الذي رفع به الرسول ﷺ إلى منزلة الإله حتى راح - على طريقته بالتوسل - يتوسل إليه بقرابة أهل بيته، وبأصحابه العشرة المبشرين بالجنة .

والذي يدع الحليم حيران هو تصدي بعض مشايخ هذا الزمان لحماية هذا النوع من الكفران، والدفاع عن متبنيه ببهتان ، وهناك من نماذج هذا الكفر شيء كثير ، تراها في ديوان البرعي والرواس وغيرهما . والذي جعلني أختار النموذج المذكور هو الضجة التي حدثت بسببه في إدلب وذلك في عام ١٣٧٧هـ حيث أنكرت على أحد مشايخ الموالد إنشادها ، فنصره الباقون شفهياً ، ولم يجرؤوا أن يكتبوا انتصارهم بخطهم ، وتحت توقيعهم ، لذلك اضطر منشدها أن يطلب فتيا من مشايخ لهم مكانتهم الاجتماعية ؛ فاستحصل على فتيا من مفتي دمشق ، إذ ذاك[1] حيث برر لهم الغلو الوارد في الأنشودة المذكورة بأنه من المجاز العقلي ، ولم أتمكن من الحصول على فتياه ، ولكن قرأت صورتها مع أحد الناس ، وأظنها كتبت على ورقة عادية دون أن يكون لها رقم وتاريخ في سجل الفتاوى ، فأرسلت إليه رداً على فتياه ، فلم يجبني عليه لا سلباً ولا إيجابا .

ثم استحصل منشدها على فتيا ثانية من مفتي الشافعية بحلب الشيخ أسعد العبجي تحمل رقم تسجيلها عند مفتيها وهو ٣٥٥ بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٣٧٧ و ٤ تشرين ثاني ١٩٥٧ . وهذا نصها عدا نص السؤال المحرر أعلاه لأنه معلوم،

---

(١) هو ابو اليسر عابدين .

وأصلها محفوظ في مكتبتي مع ردي عليه : قال هدانا الله ،
ذكر السؤال :

الجواب : الحمد لله وحده

نعم يجوز إنشاد هذه الأبيات أمام الناس في المسجد وغيره ، ولا شيء فيه من الكفر أصلاً ، ولا يجوز لأحد أن ينكر عليهم قطعاً ، لأن مذهب العلماء من أهل السنة والجماعة صحة التوسل به ﷺ ، وجوازه في حياته وبعد وفاته ، وكذا بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين ؛ لأنه من المعلوم أن جميع العامة لما يطلبون هذه الحاجات منه صلى الله عليه وسلم أو من غيره من الأولياء لا يعتقدون أن الفاعل في قضاء هذه الحاجات هو النبي ﷺ أو غيره من الأولياء ، بل يعتقدون أن هؤلاء الكرام هم واسطة بينهم وبينه تعالى . ولو سألت أي واحد من العامة هل تعتقد أن هذا الولي هو الذي يبدل عسرك يسراً ، وهو الذي يقضي حاجاتك ؟ فيقول : لا ، بل الفاعل هو الله تعالى وحده وأن هؤلاء الكرام واسطة بجاههم عند الله يقضي الله حاجاتي .

ونحن لم نسمع من أول الإسلام إلى الآن بأحدمن المسلمين اعتقد الألوهية بأحد من الأنبياء والصالحين بعد موتهم . وأنت إذا نظرت إلى كل فرد من المسلمين لاتجد في نفس أحد منهم غيرمجرد التقرب إلى الله تعالى لقضاء حاجاتهم الدنيوية والأخروية بهذه الاستغاثات ، لأنه من كفّر مؤمناً فقد كفر . وقد وردت الأحاديث عنه ﷺ منها ما رواه الترمذي وغيره عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ إلى أن قال : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك

محمد ﷺ نبي الرحمة ، يامحمد إني أتوجه بك إلى ربي في قضاء حاجتي ، لتقضى لي ، اللهم شفعة فيّ .

ومنها ماروواه الطبراني في حديث فاطمة بنت أسد أم سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال في دعائه : اللهم بحق نبيك والأنبياء من قبله الخ . .

ومنها ما رواه ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ورواه البيهقي وابن السني عن بلال أنه قال : قال ﷺ : من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، أسألك بحق ممشاي هذا إليك ، فإني لم أخرج أشراً ولابطراً . الخ أقبل الله بوجهه عليه ، واستغفر له سبعون ألف ملك والله سبحانه وتعالى أعلم [1] .

التوقيع

مفتي الشافعية بحلب أسعد عبجي

---

(١) يلاحظ أن هذه الفتيا بعيدة كل البعد عن حقيقة الموضوع المستفتى فيه ، إذ هو يبحث عن التوسل ، بينما البحث هو في الاستغاثة بغير الله ، والظاهر أن الشيخ لايفرق بين الامرين ، والحق أنهما حقيقتان متباينتان أشد التباين واقعاً وشرعاً ، فمن ذا الذي لايفرق بين قول قائل: يا رسول الله أغثني، وبين القائل: يا الله أغثني بجاه محمد ، فالاول وهو الاستغاثة بغير الله شرك واضح بين ، والآخر توسل بغير الله غير مشروع ، قد يؤدي إلى الشرك . وحديث الاعمى الذي ذكره الشيخ ليس فيه إلا التوسل بدعائه صلى الله عليه وسلم وهو توسل مشروع ، ولا يمكن ذلك بعد وفاته عليه السلام ، وأما حديث فاطمة بنت أسد فهو ضعيف ، وكذلك حديث أبي سعيد الخدري ضعيف مسلسل بالضعفاء، وقول الشيخ فيه: (إسناده صحيح)=

هذا هو موقف كثير من المسلمين من حقيقة التوحيد الكبرى . وللعامة عذرهم ما دام مرشد وهم كما رأيت في هذه الفتيا التي أعتقد أن مجرد ذكرها يكفي الناهين مؤونة تفنيدها .

فهي عدا ركاكتها اللفظية تحمل الجهل الذي دل عليه عدم التفريق بين التوسل والاستغاثة ؛ إذ هناك فرق كبير بينهما فالتوسل سؤال الله بجاه أحد من خلقه ، وهو وإن لم يكن مشروعاً فليس بكفر على إطلاقه ، والاستغاثة سؤال غير الله مالا يسأل إلا من الله ، والسؤال وارد على الاستغاثة المذكورة في الأنشودة .

ولقد أطال الكلام في التوسل بالأموات جامعاً معه الاستغاثة بهم دون أن يفرق بينهما ، ولم يتعرض أبداً لصيغة القصر الواردة في الأنشودة وهي المقصود بالحكم .

ولقد عول في كلامه على اعتبار نية القائل، ولو باينت قوله مع العلم أن لنا الظاهر ، ولا يمكن أن نبني أحكامنا على نية تزعم ، وهي مخالفة للقول ، فلا يجوز أن أقول لك: أعطني ، وأنا أريد من غيرك ، فالنية لاتصحح الكلام الفاسد ، ولا العمل الباطل ، وانما تعتبر بالكلام الصريح بها ، أو المحتمل لها ولغيرها كالتورية ، أما النية المفارقة للأقوال والأعمال فلا قيمة لها إلا في حال

= إفك بين ، وأما حديث بلال فإسناده ضعيف جداً ، ومن شاء الاطلاع على تفصيل هذا الاجمال الذي ذكرنا ، وغيره مما يتعلق ببحث التوسل ، فعليه مراجعة كتاب « التوسل أنواعه وأحكامه » للأستاذ العلامة محمد ناصر الدين الالباني .

الإكراه فقط ، مصداق قوله تعالى: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) . ثم ما هو الفرق بين الكفر في هذه الأنشودة وكفر أهل الجاهلية الذين كانوا يسألون آلهتهم ، ويصرحون بأنهم لا يعتقدون فيهم القدرة على تلبيتهم ، وإنما يسألونهم لوجاهتهم كي يقربوهم إلى الله ، أو يشفعوا لهم عنده ؟ وقد حكى القرآن عنهم ذلك بوضوح : (ما نعبدهم إلا لتقربونا إلى الله زلفى) (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وميزة أهل الجاهلية الاعتراف بعبادتهم وعدم المكابرة .

والزعم بأن التعبير المذكور في الأنشودة وأمثاله يخرج مخرج المجاز العقلي هو زعم باطل ، لتوقف المجاز العقلي على قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي .

ولا يخفى أن المجاز العقلي ، ورد كثيراً في الكتاب والسنة وفي كلام الناس . ففي القرآن : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) .

وفي الحديث الشريف : (يسروا ولا تعسروا) وفي كلام الناس : ارزق اليتيم واهد الضال وانصر المظلوم،ولكنه لا يشبه ما زعموه في الأنشودة المذكورة ، ولو أجزناه لوجب أن نجيز أشباهه ، فهل يرى أولئك أن يقول الناس : لا يهدي إلا رسول الله ولا يرزق إلا رسول الله ، ولا ينصر إلا رسول الله ، ولا يقي من النار إلا رسول الله ، ولا يبدل العسر يسراً إلا رسول الله ، ولا ينفع ، ولا يضر ولا يخفض ولا يرفع ولا يعطي ولا يمنع إلا رسول الله ، ولا يفرج الكروب ولا يطعم ولا يسقي إلا رسول الله الى

آخر ما هنالك من مجازات عقلية نصوغها هذه الصياغة بجانب رسول الله ﷺ، أهذا من منطق الإسلام يامسلمون؟ و كيف نستطيع إذافعلنا ذلك أن نقيم الحجة على كفر من رفعوا المخلوق الى مقام الخالق ، وحكى الله اعترافهم ، وأنهم كانوا بسببه في ضلال مبين ؛ إذ قال جل شأنه : (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون. قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون)؟ .

ألم يأت التعبير في الأنشودة المذكورة متجاوزاً هذه التسوية حيث أقام الرسول ﷺ مقام الله؟ ألم يقرأ أولئك قوله تعالى: (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون .) [١]

من المعلوم أن القول إما حق وإما باطل ، ولا يمكن بحال أن نجد للقول المذكور مكاناً في غير دائرة الباطل، لأن آية (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله) قد طردته من دائرة الحق ، إذ هو يعاكسها تماماً . أليست صفة الغلو المفرط بارزة فيه ؟ فكيف أقروه وهم يتلون قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق) ؟ ويسمعون حديث رسول الله ﷺ : « لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، وإنما أنا عبد الله ورسوله »[٢].

---

(١) سورة النمل : الآية ٦٢ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الانبياء والدارمي في سننه كتاب الرقاق والامام احمد في مسنده (٢٣/١ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٦٠) .

وإذا لم يكن القول المذكور غلواً فما هو الغلو المنهي عنه في الآية اذاً؟ حقاً إن أمر أولئك العجيب . وما كنت - لو لم أسمع قولهم - لأصدق تناقضاً كهذا يصدر عن جاهل فضلاً عن عاقل ، وفي أهم أمر من أمور الدين وهو الإيمان ، فيبررون الكفر بما زعموه من حسن النية ، ولا يقبلون من مقر في إقراره زعماً يخالف قوله في أمر دنيوي ، بل يؤاخذونه بإقراره .

ليتهم يفهمون كلام الله ويذكرون قوله الصريح بالتبكيت على مثل هذا الكفر : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب..) وقد فُسر الذين زعموهم من دونه في البخاري وغيره بالملائكة والمسيح وعزير أ ه وبالقياس عليهم يدخل كل نبي ، وكل مدعو غير الله ، فإنهم بشر مثلنا لايملكون كشف الضر عن أحد ولا تحويله .

أين هؤلاء من قوله تعالى (قل : إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين) ؟ .

وأين هم من قوله تعالى (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل : الله ينجيكم منها ، ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون) .

ألم يعرّف الفقهاء الكفر بأنه إنكار شيء مما علم من الدين بالضرورة ؟ أليس الغلو الذي يخرج الشيء المغالي فيه عن حقيقته مذموماً ومستقبحاً ؟ أليس الغلو الذي يرفع البشر إلى مقام الإله أمراً مستنكراً ممنوعاً ؟ ألم يقل

رسول الله ﷺ « إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو »[1] فالغلو ممنوع ومحرم في كل شيء بنص الكتاب والسنة ، ومنعه من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة .

أليس أصل الردة عن الإسلام كما ذكره الفقهاء هو إجراء كلمة الكفر على اللسان بعد وجود الإيمان من غير إكراه ولا إجبار ؟

أليس القول المذكور في الأنشودة مماثلاً للقول ببنوة عيسى عليه السلام لله ، والقول بتأليه سيدنا علي رضي الله عنه ؟

وإن الادعاء بأن أحداً لا يعتقد مضمون القول المذكور ، وأن إسلام المرء قرينة مانعة من إرادة الكفر لدليل ساطع على اعترافهم بأن القول المذكور يفيد الكفر بنصه .

وما داموا قد اعترفوا بأنه يفيد الكفر ، فهلا تركوه ونهوا عنه بدلاً من تجويزه والدفاع عنه ، والتماس المبررات لأصحابه ومنشديه ، والزعم بحسن نيتهم وعقيدتهم ؟

هل يجهلون أن التلفظ بالكفر دون إكراه يوقعهم في الكفر ، هل غاب عنهم أن الله حرم لفظة (راعنا) لدلالتها عند اليهود على معنى مستقبح واستبدل بها لفظ (انظرنا) حتى لا يستغلها اليهود في مخاطبة الرسول الكريم بها ؟

---

(١) أخرجه الإمام احمد في مسنده عن ابن عباس وكذلك الترمذي وابن ماجه ، وصححه الالباني في « صحيح الجامع - ٢٦٧٧ ».

فلم لا يمنعون القول المذكور وأشباهه وقد اعترفوا بكفره ؟

لقد منع الله المسلمين من سب الكافرين حتى لا يقابلوا المسلمين بمثله ، وذلك في قوله تعالى : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدواً بغير علم) .

ومنع رسول الله ﷺ المسلم من لعن غيره حتى لا يقابَل منه بمثله ، واعتبر المتسبب في مسبة والديه ساباً لهما مع العلم بأنه لا يقصد سبهما ولا يريده ، فقد أخرج مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله من لعن والديه » ويوضح معناه قوله ﷺ : « من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا : وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال: نعم . يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه »[1] .

فكيف استساغوا التلفظ بالكفر وبرروه بحسن النية والقصد ؟

وأخرج الإمام أحمد عن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب . قالوا . وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لايجوزه أحد حتى يقرِّب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما: قرب . قال ليس عندي شيء أقرب ، قالوا له : قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار . وقالوا للآخر: قرب . فقال:

---

(١) أخرجه مسلم (١/٦٤ ، ٦٥) .

ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة »[1]

فإذا كان تقريب الذبابة وهي ليست مما يتقرب به قد أدخل فاعله النار، فكيف لا يدخله النارَ لفظ الكفر ينطق به طائعاً غير مكره ؟

وصفوة القول : إن حقيقة التوحيد تدفع ظالميها الذين عكروا صفوها بالرياء وهو من الشرك الأصغر دفعاً بعيداً ، وتجعلهم مشركين بعبادتهم لله . يفطن لهذا من يذكر قول الله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) فكيف لا يكون أنصار القول المذكور في الأنشودة المتقدمة خالدين في سقر ، وقد قالوا قولاً إدّاً ، وجعلوا رسول الله لله ندا ؟ . ليذكروا قول الرسول ﷺ للرجل الذي قال له : ما شاء الله وشئت يارسول الله ! فأجابه قائلاً : « أجعلتني لله ندا ؟ قل : ماشاء الله وحده »[2] ثم ليصروا بعد ذلك على قولهم إن شاؤا أن يكونوا لجهنم حطباً .

إن توحيد الله حق خالص من كل شائبة ، لا يقبل أن يجرح بخواطر السوء ولا بزاعم الغافلين ، وأهواء المبطلين ، وأفعال اللاهين . يفطن لذلك من آمن بالله وعلم بما قضاه (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه) . ومن أبى إلا أن يكون من هؤلاء فيسعه قوله تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان

---

(١) إسناده ضعيف مرفوعاً ، صحيح موقوفاً على سلمان رضي الله عنه .
(٢) أخرجه النسائي عن ابن عباس .

لايسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون)[1] .

وصيانة للتوحيد عن كل ما يجرحه كلف المسلم أن يعلن براءته من عبادة غير الله في كل ركعة من ركعات الصلاة ، حيث يردد قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) وقد أجمع المفسرون والعلماء على أن معناها حصر العبادة والاستعانة بالله ، أي لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك

وعلّم دعاءً ينفض به عن نفسه ماعساه يعلق بها من شرك خفي لا يحس به حيث يقول : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وانا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم .

وهذا الصفاء في التوحيد هو الذي طلبه رسول الله ﷺ من كل مسلم في الدرس الذي لقنه لابن عباس حين كان رديفه ، فقال له : « ياغلام إني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن : احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف »[2].

كما علّم مثله معاذ بن جبل رضي الله عنه حين سأله عن عمل يدخله الجنة ، ويباعده من النار حيث قال له : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

(٢) رواه أحمد والترمذي وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع - ٧٨٣٤»

يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً . . . إلى آخر الحديث الشريف[1]
ثم علّم المسلمين أن الإيمان بالله يشترط لصحته الكفر بما يعبد من دون الله ، فقال : « من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله »[2] . واشترط الله لصحة الإيمان بالله الكفر بالطاغوت فقال : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) .

– التوحيد قوام الحياة –

رأس الخير في الوجود بالنسبة للبشر هو توحيد الله ، أي التحقق بالعبودية له سبحانه حساً ومعنىً ، سراً وجهراً ، ظاهراً وباطناً ، ولهذه الغاية خلقهم (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

ولا يخفى أثر هذا التوحيد في سائر أوضاع الحياة البشرية على كل عاقل مفكر (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أي السموات والأرض (فسبحان الله رب العرش عما يصفون)[3] .

ونظراً لأهمية التوحيد في الحياة جعل الله الدعوة إليه تعم جميع الأمم ، وجعله في مقدمة كل رسالة من رسالاته . نطق بذلك القرآن الكريم : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[4] (وما أرسلنا

---

(١) قرة عيون الموحدين ص ٦

(٢) رواه مسلم وأحمد عن والد أبي مالك الأشجعي .

(٣) الأنبياء آية ٢٢ .

(٤) النحل ٣٦ وتمامها : فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[1] فـلا تستقيم حياة يلاحظ فيها غير الله ، أو يراقب فيها غير وجهه. ينبه إلى هذا قوله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) والظلم في الآية يراد به الشرك لما ثبت في حديث ابن مسعود وغيره مرفوعـاً « إنما هـو الشرك . ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : (إن الشرك لظلم عظيم)[2] » ؟

وهل العبادة إلا أن يقصد وجه الله في فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ودعاء الله وحده دون سواه ؟ . وهذه الأحوال الثلاثة متعانقة لا تفترق بحيث لو صلى عبد استجابة لأمر الله بالصلاة ، وامتنع عن الميسر والخمر ، لا لأن الله نهى عنهما ، بل لإدراكه ضررهما فقط ، فلا قيمة لصلاته . ومثـل ذلك مـا لو صلى لله ، ودعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه غير الله ، فـلا قيمة لصلاته ، لأن الذي قال : (وأقم الصلاة لذكري) هو الذي قال أيضاً : (فلا تدعوا مع الله احداً)[3] وهو الذي قال أيضاً (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله الا هو. كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليـه ترجعون)[4] ، وهو الذي قـال : (ولا تدع من دون الله ما لا يضرك ولا ينفعك ، فإن فعلت فإنك اذاً مـن الظالمين)[5]

---

(١) الانبياء آية ٢٥ .

(٢) رواه الشيخان بنحوه .

(٣) الجن آية ١٨.

(٤) القصص : ٨٨.

(٥) يونس : ١٠٦.

ولعل أعجب العجب أن يقول مؤمن يتلو كتاب الله ، ويمر بهذه الآيات البينات وأمثالها بجواز السؤال من أصحاب القبور مـا لا يُسأل إلا من الله . ويزيدك عجباً أنك تراه يعترف معك بعجز من يسألهم من الأموات عن الاستجابة والتلبية، ولكنه يحاول تلفيق مزاعمه بمنطق مفلوج كقوله : إنه يقصد أن يجيب الله سؤاله ببركة صاحب القبر ، وبفضل جاهه عنده ، وأنه لا يعتقد أن صاحب القبر هو الذي يجيب سؤاله [1].

لماذا هذا اللف والدوران يامن يجب أن يحترم عقله ودينه ؟ أما كان خيراً لك أن تنهى نفسك وغيرك عن مثل هـذا السؤال الذي أنكرت قالبه اللفظي ، ونفيت معناه الظاهر، وأتيت بمعنى جديد لا يفيده كلامك ؟ ولكنه الجمود على ما جاءك من غيرك ، والجحود لنعمة عقلك أورثاك هـذا الغي ، وأردياك في الضلال من حيث تشعر أو لاتشعر ، فانتبه قليلاً إلى هذا الشأن ، واستعذ بالله من الشيطان ، لتحب الحق الذي كرهته ، وترجع إلى ما آتاك الله من ذكر أعرضت عنـه ، واقرأ ليعود إليك صوابك ، أو لتعود أنت إلى صوابك قول الله جل شأنه الذي سيخاطبك به يوم الفزع الأكبر : (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون، مستكبرين سامراً تهجرون. أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين ؟ أم لم يعرفوا رسولهم ،

---

(١) قائل ذلك هو الشيخ عبد الغني حمادة من ادلب في رسالته التى أسماهـا – زوراً – (الحقيقة الاسلامية ومثله في هذا القول مفتي الشافعية السابق بحلب أسعد عبجي .

فهم له منكرون ؟ أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون) .

إي والله لقد أعرض الكثيرون من المنتسبين للإسلام عن هدى الله متبعين أهواءهم ، يرون الحق ما ورثوه ، وتسرب إليهم من عصور الانحطاط الذي أصاب المسلمين في عهود شتى مضت تدحرج فيها إلى الإسلام ما ينافيه وألصق به ماليس منه ، ثم تركز في نفوس الجماهير التي تقنع بغير برهان ، وتسمع من كل إنسان ، وتقلد في كل شأن .

فإذا نهض الواعون فيهم لردهم إلى الصواب تعرضوا لمطاعنهم ملتفين فيها حول المتشبهين بأهل العلم في زيهم الذين لا يستهدفون إلا احترام العامة لهم ، وتقبيل أيديهم ، والسير من ورائهم ، يتعاظمون بذلك على رواد الحق الذي نهضوا لنشره ، ويهددون الهداة بسخط الجماهير عليهم ، وإثارتهم ضدهم ، ويبحثون في زوايا الكتب التي اشتملت على ماتدحرج في الظلام إليها ليسوقونه حجة ليطمسوا به معالم الحق ، كما فعل كثير منهم في مؤلفات ونشرات بثوها في أيدي الناس تحمل الجهل والتحريف والتضليل باسم الحق ، ومن أمثلة هذا مزاعمهم التالية :

١ ـ زعموا جواز الاحتيال للوصول إلى ماحرم الله ، فأباحوا أكل الربا عن طريق النذر من المستقرض للمقرض .

٢ ـ أباحوا الزنا عن طريق العقد الصوري .

٣ ـ أباحوا الصلاة إلى القبور بحجة أنهم لا يقصدونها في صلاتهم .

٤ - أباحوا قصد زيارتها للدعاء عندها ، أو دعاء أصحابها متأولين عملهم بتأويل لا برهان عليها من دين الله .

إلى غير ذلك مما تشبثوا به من أباطيل سيأتي الكلام عليها في مواضعها إن شاء الله تعالى .

أما الآن ونحن نبحث الهدف الأول والحقيقة الكبرى وهي التوحيد الصافي ، فنستعرض ما يجرحها أو ينافيها رجاء أن يعرف الجاهل الطريق إلى تصحيح إيمانه ، ويذكر الغافل السبيل إلى تصفية توحيده ، والله المستعان أن يوفقنا لصواب القول ، ويفتح لوعيه مغاق القلوب إنه سميع مجيب .

ما يضادّ التوحيد وينافيه :

إن الإسلام قد اجتث من النفوس بتعاليمه السامية كل ما يضاد هدفه الأول ، وطالب المؤمن بإخلاص الدين كله لله ، ولم يرض منه إلا عملاً خالصاً لوجهه الكريم . قال النبي ﷺ : « إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه »[١] وسبب هذا الحديث أن أبا أمامة قال : يارسول الله أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال : لا شيء له . فأعادها ثلاثاً يقول . لا شيء ، ثم ذكره .

ومن أجل ذلك حرم كل مايفعل مقصوداً به غير وجه الله ، أو قصد به

---

(١) رواه النسائي عن أبي أمامة ، من فيض القدير (ج ١ ص ٥٠٢ ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع - ١٨٥٢ »

الله وغيره . واقرأ لتفهم هذا المعني قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

نعم لا يشرك أحداً مع الله في كل عمل ؛ لأنه ما خُلق إلا لعبادة الله وحده وهي شاملة فعل القلب والجوارح : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ولن تكون أبداً في عمل يتباين فيه القلب مع الجوارح .فالواجبُ حين يُترَك عمداً لا يكفِّر إثم تَركِه حُسْنُ النية ، والعمل السيء حين يُفعل عمداً وقصداً لا يجبره حسنُ النية ، والنية السيئة مع العمل الصالح تفسده أيضاً.

صلى وصام لأمرٍ كان يطلبه   لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

لذلك ينتفي الجمع بين الإيمان المزعوم ، والكفر الملفوظ ، أو المصنوع دون ما إكراه أو إجبار ، فادعاء الإيمان مع السجود لغير الله اختياراً هراء ، وكذلك زعم الإيمان مع قول الكفر نوع من الهذيان ، كأن يقول : أنا مؤمن بكل ما يجب الإيمان به ، ومؤمن بأن لا نافع ولا ضار إلا الله ، ثم يستغيث بمن لا يغيث كالأموات يرتاد قبورهم ليستشفي بهم ، وينذر لهم لينال خيراً ، ويسألهم تفريج الكروب والسلامة من الخطوب .

ومن هذا القبيل قول المنشد في الأبيات السابقة الذكر : يا إمام الرسل يا سندي .

ومثله أيضاً تعليق التمائم والرقى ، ولبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء والتبرك بشجر أو حجر ونحوهما ، وكذلك النذر لغير الله ، والذبح في مكان يذبح فيه لغير الله إلى غير ذلك من الشركيات التي تفسد توحيد المسلم ، وتجعله زعماً باطلاً .

في الصحيحين عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » رواه أحمد وأبو داود ، وصححه العلامة الألباني في « صحيح الجامع ١٦٢٨ » .

وعن عبد الله بن حكيم مرفوعاً : من تعلق شيئاً وكل إليه . رواه أحمد والترمذي . وعن علي رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات « لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه ،لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غيّر منار الأرض » . رواه مسلم .

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال : نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة فسأل النبي ﷺ فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا. فقال رسول الله ﷺ : « أوف بنذرك ، فإنه لا نذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم» رواه أبو داود وإسناده صحيح كما ذكر الألباني في«تخريج المشكاة ـ ٣٤٣٧»

الإيمان الصافي

لا ريب أن العقيدة ذات أثر كبير في توجيه سلوك الفرد ، فمن اعتقد وجود حيوان مفترس في مكان ما لا يجرؤ على ولوجه أعزلَ من السلاح . من أجل ذلك حذر رسول الله ﷺ الفرد من الاعتقاد الفاسد ، أو من إفشائه في

الناس حتى لا يفسدهم بذلك ، فقال ﷺ : « إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم »[1] . بالرفع . وفي رواية فهو أهلكَهم بصيغة الماضي . وعلى الرواية الأولى يكون القائل لكلمة (هلك الناس) أول معتقد لمعناها ، فجدير به أن يكون أول الهالكين . وعلى الرواية الثانية يكون قائلها متسبباً في إفشاء فكرة الهلاك في الناس ، فيهلكون حين يعتقدون ذلك .

ومن أجل ذلك كان تفشي الرعب في صفوف الأمة من أعظم أسباب انكسارها ، وكم نصر الله نبيه بالرعب الذي قذفه في قلوب أعدائه ، وبه أخبرنا ﷺ فقال : نصرت بالرعب من مسيرة شهر

مما تقدم علم أن الأساس الذي نبني عليه نظم السلوك والتعامل في الحياة إنما هو العقيدة ، وأقل انحراف فيها يبدو أثره في نظم الحياة سيئاً ، فيفسدها ويتلاحق فيها الفساد ، فيكون سبب موت الأمة . فالعقيدة هي أشبه شيء بأساس البنيان ، وإن انحراف الأساس ، ولو قيد شعره يعرض البناء لانهيار وإبادة ما اشتمل عليه .

والذي يظهر لنا أن الإنسان في سائر العصور لا يؤتى إلا من ناحية العقيدة ، وإن الشيطان قد حصر وسوسته فيها ، فهو إذا توجه لإضلال إنسان يصغّر خطر المعصية ، ويغريه بعفو الله ورحمته التي وسعت كل شيء ، وينفخ في شهوته لتتضاعف حتى يتقبل ذلك الإغراء ، وهو نوع من الاعتقاد لاتتم المعصية إلا بتمامه ، ويظل يعمل على إضعاف إيمانه متذرعاً لذلك بتدريجه في

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة .

المعاصي من بسيطها إلى مركبها ، ومن خفيفها إلى ثقيلها حتى يوقعه في الكفر وهذا ما أشار إليه بعضهم بقوله : « المعاصي بريد الكفر) وهو معنى ملحوظ في أعمال الشيطان الاستدراجية المشار إليها في الحديث الشريف : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته ». متفق عليه . وفيه تدريج الشيطان للإنسان من أمور مسلّمة ليوقعه في أكبر الكبائر.

- لا يعرف خطر الشرك من جهل عظمَ كلمة التوحيد -

لو سألك سائل عن ثمن ساعتك فقلت : ثمنها عظيم ، فقال : ألف دينار ، فقلت : أكثر فزاد في تقديره وأنت تقول هو أكثر ، فإنه يدهش ويبدأ يفكر في أسباب عظمة قيمتها ، فإذا علمت أن كلمة التوحيد في ميزان الله أثقل من الكون وما فيه تجدك متسائلاً عن أسباب عظمها طالباً معرفة حقيقتها .

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « قال موسى: يارب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به . قال قل ياموسى : لاإله إلاالله. قال : يا رب كل عبادك يقولون هذا . قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله الا الله ». رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

والذي يدركه كل عاقل أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام أراد بقوله (كل عبادك يقولون هذا) أن يعلم الناس قيمة هذه الكلمة ،وحاشاه أن يكون جاهلًا بقيمتها ، أو أنه استخف بها فطلب أعظم منها . إنما أراد ذكراً خاصاً

به ، فبين الله تعالى له أنها أفضل الذكر ، وأنه وغيره من الرسل إنما أرسلوا بها إلى الناس . قال تعالى : (وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ويتأكد المسلم من عظم هذه الكلمة عندما يتذكر خفة جميع المعاصي بجانبها ، فالعاقل يرى في قتل النفس ظلماً جريمة نكراء بشعة ، وكذلك في الزنا والربا والسرقة ، والغصب والظلم والكذب وغير ذلك من الفواحش والمنكرات ، وهو حين يعلم أن معصية الله بواحدة مما ذكر ، أو بمجموع المنكرات وبارتكاب المنهيات ، وبالتقصير في الواجبات كل ذلك ممكن أن يغفره الله ، أما الشرك فلا يمكن أن يغفره الله يتأكد عنده عظم كلمة التوحيد ، فقد أخرج الترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال الله تعالى : ياابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)[1] .

وإننا نجد هذا المعنى واضحاً جلياً في قوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

وليعلم أن تقليل أمر الذنوب والمعاصي إنما هو لبيان أهمية التوحيد ، وخطر الشرك لا لتهوين المعاصي . ومن ظن هذا فهو أحمق وجاهل لأن الله هدد العصاة والمذنبين بالعقاب والعذاب الأليم ، وأنذر وحذر ، والمستخف بمعصية الله يكفر والعياذ بالله تعالى .

---

(١) هو جزء من حديث رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .

إن هذه الكلمة التي عرفنا رجحانها على السموات السبع ، والأرضين السبع وما فيهن تنفي وجود إله معبود بحق غير الله،وتثبت العبادة لله وحده بما شرع لابغيره،فمعناها : لا أعبد غيرك يا الله، ولا أعبدك إلا بما شرعت لنا، لا أعبدك بما أشرع أنا ، ولا بما يشرع غيرك من عبادك .

يتضح ذلك من حديث عدي بن حاتم حين دخل على رسول الله ﷺ فسمعه يتلو قوله تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون)[1] وباعتبار أن عدياً كان نصرانياً قبل أن يسلم اعترض حين سمع تلاوة الآية ظاناً أن عبادتهم ركوع وسجود لهم ، فقال : ما كنا نعبدهم يا رسول الله : فأجابه الرسول ﷺ مصححاً له فهمه : أليس كانوا يحلون لهم فيحلون ، ويحرمون عليهم فيحرمون؟ قال : بلى.قال ﷺ : فتلك عبادتهم[2]. وعلى هذا يكون كل من عبد الله بشيء لم يشرعه الله ، وإنما شرعه البشر وهو يعلم، يكون قد اتخذ الشارع لهذه القربة رباً من دون الله . (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) ؛ ومن أجل ذلك كان الإيمان الذي لا يقترن بالكفر بالطاغوت غير مجد ولا مفيد ، ومن آمن بالله وبالطاغوت لا يسمى مؤمناً . ولهذا اشترط الله لصحة الإيمان الكفر بالطاغوت ،

---

(١) التوبة : ٣١ .

(٢) رواه أحمد والترمذي واستغربه وهو حسن بطرقه .

فقال جل شأنه : (فمن يكفر بالطاغوت، ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم) .

ويلاحظ أنه قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ؛ لأنه لا يعتبر مؤمناً إذا لم يكفر بالطاغوت .

ـ ما هو الطاغوت ـ

"طاغوت في اللغة مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد . ويطلق على الشيطان وعلى الكهان ، وعلى كل رأس في الضلال ، ويشمل المفرد والجمع مذكراً أو مؤنثاً

فالطاغوت إذاً هو الانحراف عن شرع الله تعالى إلى غيره في كل شأن من شؤون الحياة ،سواء كان ميله عنه إلى غيره في القول أو السكوت ، أو الحركة أو السكون ، أو الفعل أو الترك ، ونعني بذلك اعتقاد ما ينافي تعاليم دينه القويم الذي عبر عنه في الآية التي انطلقنا منها بـ(صراط العزيز الحميد) . فكل ما يباين هذا الصراط أو بعضه هو ظلمة . وقد مد الله صراطه للناس كافة ليسلكوه ويؤمنوا به ويجانبوا ما سواه ، فأي تطلع إلى مفارقته يعد انصرافاً عنه ، وإن زعم أنه آمن به وبقي عليه . فلو عزم على أن يجرب غيره لعله يكون أحسن أو أنفع خرج بذلك العزم من الإسلام لأنه تردد في إيمانه ، والتردد في الإيمان ليس بإيمان وقد أشار الله إلى هذه الحقيقة بقوله : (ومنهم من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ...)

فالدافع للشرك في الإسلام بعضه أو كله يأتي من الاعتقاد بأن غيره أنفع منه ، و كأنه بذلك انتقص ما عند الله ، من أجل ذلك أضاف الله تعالى الصراط الى ذاته تنبيهاً على أن المؤمن الكائن على صراطه يستجمع أطراف الخير ، ويعز بعزة الله ويحمد بحمد الله ، ويستمتع بماشاء الله من ملكه في السموات والأرض ، بشرط أن يؤثر رضاء الله على ما يفوته من متاع الحياة الدنيا عندما يتعارض طلبه مع رضاء الله في زعمه وهذا ماصرحت به الآية المذكورة في قوله تعالى: (وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد)

فحقيقة التوحيد إذاً أن يؤمن بالله إيماناً ينفي الإيمان بما سواه ، فإذا بقي مؤمناً بالله وبما سواه كان على إيمانين لا على إيمان واحد ، إذ يكون مؤمناً بالله ومؤمناً بالطاغوت ، وبذلك ينمحي أثر إيمانه بالله ويضل ضلالاً بعيداً . ذلك لأن صاحب الإيمانين متناقض يزعم الإيمان بالله ويصد عن سبيل الله ، يدعي توحيد الله ، ويبغي الالتواء عن الله منساقاً لذلك بتأليه دنياه مع الله ، وهذا ما أشار إليه ختام الآية المذكورة في وصف الكافرين : (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، أولئك في ضلال بعيد .)

وسنورد نماذج من الأمور الشركية التي مردها إلى ترجيح المنافع الدنيوية على رضاء الله ، والتي أذهبت أثر الإيمان ، وجعلت أصحابها مشركين ، وبذلك ضلوا ضلالاً بعيداً .

– شرك أهل الجاهلية ومقابلته بشرك مماثل من واقع المسلمين –

كان شرك أهل الجاهلية قائماً في نفوسهم على اعتقاد تأثير لغير الله ، فراحوا يخافونه ويسألونه ، قال تعالى : (ويخوّفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فماله من هاد ، ومن يهد الله فماله من مضل . أليس الله بعزيز ذي انتقام ؟)[1].

وهذه الآية صريحة في تطمين رسول الله ﷺ حين خوّفته قريش بخطر آلهتها عليه عندما عابها وسفه اعتقادهم بها ، وجاء التعبير مشعراً بعمومه وشموله كل ما سوى الله ، كل الذين من دون الله من أصنام وتماثيل ، وكواكب وأرواح ، وإنس وجن ، وجماد وغير ذلك .

ولو تابعت قراءة الآية المذكورة إلى نهايتها ، وتأملت فيها لعلمت أن الله يطالبك أن تنزع من نفسك الاعتقاد بأي تأثير لغيره في جميع شؤونك ، وهذا هو تمام الآية : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادني برحمة ، هل هن ممسكات رحمته؟ قل حسبي الله ، عليه يتوكل المتوكلون . قل : يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم . إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل) . الآيات من ٣٧ – ٤٢ الزمر .

---

(١) الزمر : ٣٦ – ٣٧ .

وقال جل شأنه في سورة الإسراء آية ٥٦ :(قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه فـــلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمة ، ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا) .

وقد تبين من الآيات الكريمة أن مشركي الجاهلية لم يكونوا يجحدون وجود الله ، أو ينكرون أنه الخالق الرازق ، وإنما كانوا يعتقدون تأثيراً لغيره ، فلم ينجهم اعتقادهم هذا من الحكم عليهم بالشرك .

وإن كثيراً من المسلمين اليوم يعتقدون اعتقاد أهل الجاهلية ، فيحلفون بغير الله ، يحلفون بشرفهم بآبائهم بحياتهم بذمتهم بأماناتهم ..

وينذرون لصالحي الموتى ، ويتمسحون بقبورهم ، ويتبركون بآثارهم ، ويسألونهم مالا يقدر عليه غير الله ، ثم هم يزعمون أنهم يعبدون الله .

أنواع من الشرك

إن المنبع الذي ينساح منه الشرك إلى نفوس الناس هو حب الدنيا ، وبنسبة هذا الحب يخف الشرك أو يثقل ويعظم .

وأخف أنواعه أن يحب رؤية الناس له حين يعمل طاعته ليثنوا عليه خيراً ويمدحوه ، أو يتهيب ذمهم فيفعل ما يعتقد عدم مشروعيته من البدع مسايرة لهم كي لا يطعنوا فيه ، أو يقولوا عنه : إنه وهابي مثلاً .

وإلى ذلك أشار رسول ﷺ بقوله « الشرك الخفي أن يعمل الرجل

لمكان الرجل» أخرجه الحاكم في الرقاق عن أبي سعيد الخدري وقال الحاكم : صحيح، وأقره الذهبي[1]. وقال الحافظ المناوي في شرحه في الفيض (رقم ٤٩٣٠): أن يعمل الطاعة لأجل أن يراه ذلك الإنسان و يبلغه عنه ، فيعتقده أو يحسن إليه ، سماه شركاً لأنه كما يجب إفراد الله بالألوهية يجب إفراده بالعبودية[2] اهـ .

وفي الموضوع نفسه أخرج الحكيم الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك و كباره . تقول : اللهم اني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم ، تقولها ثلاث مرات . والحديث في الفيض (برقم ٤٩٣٤)[3] ، قال الحكيم: صغار الشرك كقوله ما شاء الله وشئت . وكباره كالرياء . والحديث مشعر بتفاوت درجات الشرك ، وبعضها يجر المتساهل إلى البعض الآخر ، فإذا أدام استغفار الله مما لايحس به ، واستعاذ بالله مما أحس به كان من أهم وسائل التخلص من الوقوع في الأمور الشركية

---

(١) وأورده العلامة الألباني في « صحيح الجامع الصغير – ٢٦٢٠ » وحسنه

(٢) كذا قال ، والصواب عندنا أن نقابل العبودية بالربوبية، فتصبح العبارة « كما يجب إفراد الله بالربوبية يجب إفراده بالالوهية » .

لان كل من أفرد الله بالعبودية فقد أفرده بالالوهية ، ولا عكس ، أي ليس كل من أفرد الله بالربوبية فقد أفرده بالالوهية ، وهذا من الامور الدقيقة التي تخفى على الخاصة فضلاً عن العامة فتؤدي إلى الوقوع في الشرك من حيث لايدرون .

(٣) وأورده الالباني في « صحيح الجامع – ٣٦٢٥ » وصححه .

– التدهور الى بطن الوادي مبدؤه زلة قدم من أعلاه –

يعرف خطر الزلة الأولى من عرف قوله ﷺ : أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . فسئل عنه فقال : الرياء . رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي عن محمود بن لبيد[1] .

وإذا أردت معرفة سبب هذا الشـــرك وجدته ينبع من حب الدنيا الذي زين لصاحبه الرياء كوسيلة لامتـــداحه والثناء عليه ، ليحظى باحترام الناس وتقديرهم له والاطمئنان إليه ؛ ليجعل هـذا الاطمئنان ذريعة الدنيا ، وهو بذلك يعيش منعدم الإخلاص لله ، فيكون بعبادته صياداً وغاشاً ومحتالا . ولولا ذلك لأخلص العبادة لله وحده الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ولم يهمه معرفة الناس بعبادته ، لأن الذي سيجازيه على عبادته مطّلع عليـه ، فماله وللناس ؟

وإذا فطنت إلى هذه الحقيقة عرفت السر في حجب الله مغفرته عن عبده الذي يدعو له نداً مصداق ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رســـول الله ﷺ قال : « من مــــات وهـــو يدعو لله نداً دخـــل النـــار » .

وما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار » .

---

(١) من مجموعة التوحيد النجدية ص ٣٣ .

ومن يمعن النظر في بواعث أنواع الإشراك التي تظهر آثارها في سلوك العبد يجدها لاتعدو حب الدنيا . وقد سمى الرسول ﷺ مؤثرها على آخرته عبداً لها كما تقدم في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطي رضي وإن لم يعطَ سخط » .

وقد شرح الإمام أحمد بن تيمية شيخ الاسلام رحمه الله هذا الحديث في كتابه العبودية بقوله : « وهذه حال من إذا أصابه شيء لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ، ولا خلص من المكروه ، وهذه حال من عبد المال ، وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي وإذا منع سخط ، كما قال تعالى : (ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) [1] ، فرضاهم لغير الله ، وسخطهم لغير الله .

وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه . إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد مايهواه من ذلك، وهو رفيق له ، إذ الرق والعبودية في الحقيقة رق القلب وعبوديته .. الخ »[2].

ـ عبادة الله بغير ما شــرع شـرك صريح ـ

لقد حصر الله تعالى خلق الإنس والجن في غاية واحدة هي أن يعبدوه

---

(١) سورة التوبة : الآية ٥٩ .

(٢) ص ٨٦ من كتاب العبودية طبع المكتب الإسلامي . بيروت .

وحـــده ، فقال سبحانه : (وما خلقت الجـــن والإنس إلا ليعبدون)
(الذاريات ٥٦).

ثم بين لنـا ربنا أن الدعوة إلى عبادته وحده هي مهمة جميع الرسل ، وذلك في قوله جل شأنه : (وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وفي قوله أيضاً : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت).

وعبادته لاتتحقق إلا باتباع ما أنزله مصداق قوله جل شأنه : (اتبعوا ما أنزله إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلاً ما تذكرون) فلا يجوز الحيد عما أنزله واتباع سواه .

وهذا المعنى هو المفهوم بوضوح من قوله تعالى في سورة الفاتحة : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وهو المشار إليه بقوله تعالى : (وأن هـذا صراطي مستقيماً ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

فالصراط المستقيم هوسبيل اللهالذي دعا إليه ، وهوالسنة أي شرع الله.
والسبل هي ماعليهأهل الأهواء الذين زادوافيدين الله أموراً استحسنوها بأهوائهم وزينتها لهم عقولهم ، فزعموها تقرب إلى الله ، وما هي إلا البـدع التي حذر منها رسول الله ﷺ ، واعتبرها محض ضلالات .

والدليل على ماذكرنا حديث عبد الله بن مسعود قال « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً طويلاً وخـط عن يمينه وعن يساره فقال : هذا سبيل الله ، ثم

خط لنا خطوطاً عن يمينه و يساره وقال : هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا هذه الآية : (وأن هـذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل يعني الخطوط فتفرق بكم عن سبيله) قال بكر بن العلاء : أحسبه أراد شيطاناً من الإنس، وهي البدع[1] ذكره الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام (جـ ١ ص ٥٩) وقال : « والحديث مخرج من طرق أخرجه أحمد وعبد بن حميد والبزار والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه ».

وينتج عن ذلك أن عبادة الله بالبدع المحدثة هي تعبُّد له بغير ما شرع ، والله تعالى يقول : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ؟ وإن إطاعة الآمر بها والداعي لها[2] شرك بالله .

وكان يكفي ليقلعوا عن هذا الشرك أن يسمعوا الآيات والأحاديث المار ذكرها، أو يُذَكروا بها ، ولكنهم مع الأسف الشديد يردونها بقولهم : إن العلماء قالوا عن هـذه البدع والمحدثات بأنها حسنة مع اعترافهم ببدعيتها ، فأقوال المبتدعين أثبت في نفوسهم منها[3] . وإذا لم تبلغ بدعهم حد الكفر المخرج عـن الملة فهي على أقل الدرجات حرام قطعاً ، ثابت بنص حديث رسول الله ﷺ ، وهم يتقبلون فعل هذا الحرام، ويعتقدون مشروعيته لا الشيء

---

(١) أي دعاة البدع .

(٢) أي عالماً بها وراضياً عنها .

(٣) أي من الآيات والاحاديث .

سوى اعتقادهم بأن العلماء يفهمون هذا ، وإذا جوبه أحـدهم بالآية والحديث قال : أنا لا أفهم الآية والحديث زعماً منه أن العلماء لم يفتهم شيء من دين الله، أو أنزلوا طاعة العلماء منزلة طاعة الله، ويعتقدون أن العلماء لا يمكن أن يخطئوا، أو يأمروا بفعل الحرام أو يحرموا الحلال ، مع أن ابن عباس رضي الله تعالى عنه وهو من الصحابة قال لبعض معاصريه الذين كانوا يحتجون عليه بقـــول خير الصحابة أبي بكر وعمر رضي الله عنهـــم جميعاً قال لهم : يوشك أن تـنزل عليكم حجارة من السماء . أقول لكم قال رسول الله ﷺ ، وتقـولون قـال أبو بكر وقال عمر .

والإمام الشافعي رحمه الله تعالى قال أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد .

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى ما منـا إلا رادّ ومردود عليـه إلا صاحب هذا القبر ﷺ .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : « عجبت لقـوم عرفوا الإسنـاد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان ، والله تعالى يقول : (فليحذر الذين يخـــالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .) أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك »

وإن أقوال الأئمة رحمهم الله في هذا المعنى كثيرة ومشهورة ، ولم يدعُ واحد منهم إلى تقليده فيما اجتهد فيه بل أوصوا جميعهم الناس بأن يلزمـــوا جانب السنة إذا استبانت لهم ، لعلمهم أن آراءهم تحتمل الخطـأ والصواب ،

وذلك على الرغم من تدقيقهم وتثبتهم ومبالغتهم في البحث، وهم يبرؤون إلى الله من كل مسلم يرد سنة رسول الله ﷺ بأقوالهم وآرائهم .

وإذا كان هذا الحال مع الأئمة العظماء العلماء فعلاً والمتثبتين في دينهم ، فكيف بمن يطيع من لهم زيُّ العلماء ، وليسوا بعلماء ، وإنما هم مقلدون ، ويا ليتهم كانوا مقلدين تقليداً تاماً للأئمة العظام رحمهم الله إذاً لقل خطؤهم ، ولكنهم في الحقيقة متبعو أهواء، يحسّنون منها ويقبحون بعقولهم الضيقة القاصرة. والإمام الشافعي نفسه يقول : من حسّن فقد شرع . والله تعالى يقول : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟) .

كم وكم من هؤلاء وأمثالهم يعلمون الناس أن الله تعالى بذاته موجود في كل مكان لا يخلو منه مكان، ويتصدرون في حلقات الذكر مع التمايل والرقص منشدين بصوت ممطوط (ياموجود في كل الوجود). وهل القول بوحدة الوجود والاتحاد يعدو هذه الكلمة ؟ أليس القائل بوحدة الوجود أكفر من المجوس واليهود !

كم عطلوا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتعليم الناس الاستسلام التام لما قضاه الله على طريقة المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا، ولا آباؤنا)[1] . قالوا : لا يجوز للمريد أن يعترض على شيخه ، ولو رآه يفعل المنكر . وقالوا : ما أفلح مريد قط قال لشيخه : لِمَ ، وقالوا: يجب على المريد أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل .

---

(١) سورة الانعام الآية : ١٤٨ .

كم أدخلوا على دين الله باسم البدعة الحسنة من أهواء وتعاليم ، وتربية واعتقادات ما أنزل الله بها من سلطان .

إن إطاعة أمثال هؤلاء فيما اجترحوه من السيئات شرك من غير شك لأنها إطاعة في محرم .

عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . .) فقلت له إنا لسنا نعبدهم ! قال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرّم الله فتحلونه ؟ فقلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذي وحسنه .

- التحاكم إلى غير شرع الله شرك -

يلجأ بعض المسلمين عند اختلافهم بعضهم مع بعض إلى تحكيم غير شرع الله في أمور فصل فيها شرع الله . وقد اعتبر الإسلام هذا الجنوح من المنتسبين إليه ضلالاً بعيداً ، وكفراً صريحاً بالله . فقد ذكر البخاري اختلاف الزبير مع رجل من الأنصار على سقي أراضيها في شراج الحرة قال : خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة فقال النبي ﷺ : اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فقال الأنصاري : يارسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال : اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك . فاستوعى النبي ﷺ الزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان ﷺ أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة . قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك . وهي قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك

فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .
هكذا رواه البخاري في كتاب التفسير في صحيحه من حديث معمر ، وفي كتاب الشرب من حديث ابن جريج ومعمر أيضاً .

وحذار أن يفهم أحد أن رسول الله ﷺ غيّر حكمه عندما أحفظه الأنصاري بكلمته ، وإنما وضّح المراد من أمره بالسقيا ، فقوله : اسق يازبير يحتمل أن لايشبع أرضه ليستعجل في إرسال الماء إلى جاره ، ويحتمل أن يشبعها فأفهمه الرسول ﷺ أن يسقي إلى حد الإشباع ، وخلاصة المفهوم من منطوق الآية المذكورة نفي الإيمان عمن لايُحكِّمُ الشرع الإسلامي ، أو لايرضى بحكمه ، أو لايرتاح لحكمه ولا يستسلم له . ومثله أيضاً من يجنح إلى تحكيم غيره ، فلا يبقى مسلماً ، وإنما يكفر بمجرد إرادته التحاكم إلى غير الإسلام مؤثراً له على التحاكم إلى الإسلام . وهذا مفهوم صراحة من قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) .

ويلاحظ أن الله تعالى اعتبر التحاكم إلى غير شرعه تحاكماً إلى الطاغوت بشكل عام ، فالطاغوت إذاً يشمل كل باطل . ويجب الكفر به ليستقيم إيمان المؤمن . قال الله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لاانفصام لها والله سميع عليم) . فقد اشترط الله لصحة الإيمان به جل شأنه الكفر بما سواه .

وما يقوله بعض المتمشيخين من الناس : إن الإيمان والشرك لايجتمعان هو قول غير صحيح ، ويكذبه قول الله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وقد صح أن حذيفة بن اليمان تلا هـذه الآية عندما رأى رجلاً في يده خيط قد وضعه دفعاً للوهن ، فقطعه وضرب على فخـــذه وردّد الآية المذكورة ، ويؤكد ما قلناه قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) . وقد فسرلهم الرسول ﷺ الظلم هنا بالشرك وتلا قوله الله تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) .

ومثل هـذا الجنوح إلى تحكيم غـير شرع الله إنما ينتج عن الأهواء التي زينت لأصحابها الدنيا ، فالتمسوها في غير شرع الله ، وبذلك كان حب الدنيا وإيثارها على حب الله ورسوله مبعث العزوف عن تحكيم شـــرع الله فضلوا ضلالاً بعيداً .

ـ خطر الانحراف في الحب والبغض ـ

من المعروف المألوف أن الإنسان مفطور على الحب والبغض، فهويحب أولاده وأبويه وأقاربه ، ويحب المحسن إليه ويحب الجمال والكمال ، ويبغض أعداءه والمسيئين إليه ، وغيرهم حتى الحيوان يلاحظ فيه أثر الحب والبغض، فهو يألف المحسن إليه وينفر من المسيء إليه .

ودرجة المحبة والبغض تتناسب مع الفائدةأو المضرة ، وقد تمحو إحداهما الأخرى، فقديمحو الإحسان أثرالبغض، وقدتمحوالمحبة أثرالكراهة وبالعكس.

والعقل يدرك أن المحسَن إليه يحب المحسِن من أجل إحسانه حباً متناسباً مع الإحسان، فكيف بالله المنعم بدقائق النعم وجلائلها الذي لا تحصى آلاؤه، ولا تحد نعماؤه ، وهو القائل في كتابه : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)[1] والقائل : (... وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ...)[2] وسواء جاءتنا النعمة من الله مباشرة، أو سخر بها لنا عبداً من عباده فكلها في الحقيقة من الله، أليس هو القائل : (وما بكم من نعمة فمن الله)[3] ؟

أليس من الواجب على العاقل أن يحب الله المنعم بكل النعم حباً لا يحد بحد ، حباً لا يساويه حب ولا يدانيه ، حبـــاً يدفعه للتضحية بكل شيء في سبيل إرضائه . ولكن الإنسان الذي يؤله هواه يعمى عن الحق ، ويغفل عن الله خالقه (فإذا مسّ الإنسان ضرّ دعانا ، ثم إذا خولناه نعمةً منا قال : إنما أوتيته على علم) إنه في حال شدته فقط يفطن إلى مَن بيده تفريـج الكروب (وإذا مسه الضر فذو دعــــاء عريض) ومتى انزاحت عنه غمته ، وانفرجت كربته عاد أدراجه الى صلفه و كـــبريائه (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) ما أشـد جهل هذا الإنسان ! وما أعظم تفريطه بمقتضى ا ا ب ! إنه يرعى حب إنسان وصلت إليه عن طريقه نعمة ، ويكفر بأنعم الله فمـــــا أجهله وما أشقاه ! .

---

(١) إبراهيم : ٣٤ والنحل : ١٨

(٢) لقمان : ٢٠

(٣) النحل : ٥٣

هؤلاء عبّاد الهوى الذين أشارت إليهم الآية الكريمة إشارة استغراب لعملهم واستنكار له : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون !)[1] .

إن الهوى يحجب عبده عن إبصار الحق ولو كان عالماً ، فهو لا يرى إلا ما يوافق رغباته ، ولا يسمع إلا ما يلذ له ، ولا يدرك إلا من خلال شهواته فهو أعمى لأنه لا يبصر بنور الله (أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب) . مثل هذا ضل سبيل الرشاد ، وسلك سبيل العناد ، فلا يتولاه غير شيطانه ، ولا يتوكل به سوى أمثاله وأقرانه ، وما أروع ما نعته به الله في قرآنه حيث قال : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟ إن هم إلا كالأنعام بل أضل سبيلا) لقد هبط مستواهم عن درجة العقلاء إلى مستوى العجماوات ، لانحصار همتهم في مطالب الجسد عازفين عن مطالب الروح ، فقد أغرقوا في حب الدنيا حتى آثروها على الآخرة ، وزين الشيطان لهم حب الشهوات الجسدية ، ومن أجلها آثروا الدنيا على الآخرة ، فاستعبدتهم شهواتهم لكل من تعلقت مصلحتهم به ، فتنكبوا طريق الحق ، وسلكوا السبل التي توصلهم إلى مطالبهم ، فزهدوا في مرضاة الله وتعبدوا في مرضاة الشيطان ، فنافقوا وكذبوا وانتهكوا حرمات الله ، وأحبوا آلهتهم التي أحبوها كحب الله

---

(١) سورة الجاثية : الآية ٢٣ .

وصدق فيهم قول الله الحكيم : (ومن الناس من يتخـــذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله)

وأخرج الشيخان البخاري ومسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعـود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

وعن ابن عباس قال : « مـن أحب في الله وأبغض في الله ، ووالى في الله وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك . ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً » رواه ابن جرير .

وهذان الحديثان صريحان في أن المؤمن الموحد هـو الذي يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، ومن لم يكن كذلك كان من أعداء الله كما نص الله على ذلك بقوله : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخـر يوادون من حـاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) .

وفي الحديث الذي رواه الطبراني[1] « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله عز وجـــل » ومن لم يتقيد بما تضمنته الآيات والأحاديث المذكورة فقد ظلموا أنفسهم ظلماً عظيماً . نعم لقد ظلموا أنفسهم بحب آلهتهم

---

(١) وغيره وأورده العلامة الالباني في « صحيح الجامع — ٢٥٣٦ » وحسنه .

فوقعوا في الشرك الذي أحبط أعمالهم، وابتعدوا عن التوحيد الذي يُلزمهم أن يحبوا ما أحب الله ومن أحب الله، ويبغضوا ما أبغض الله ومن أبغض الله. فالذي يحب الظالم والفاسق والكافر والملحد كأنه يقول لله: أنا لست ملزماً بحب من تحب وبغض من تبغض، ومن أجل ذلك كان الحب في الله والبغض في الله توحيداً، وكان الجور في الحب والبغض شركاً. أعاذنا الله منه بمنه وكرمه.

وإذا استعدت في ذاكرتك الآية التي صدرنا بها هذه الرسالة أدركت خطر ترجيح الدنيا على الآخرة، وعمق الكفر الذي يُنبى به مرجحها وذلك في قوله: (وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد).

ومن أراد زيادة الإيضاح لهذه الحقيقة فليتأمل قول الله جل شأنه: (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً، فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وأن الله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأولئك هم الغافلون. لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون)[1].

لقد عذر الله من يكفر بلسانه مكرَهاً شريطة أن يبقى قلبه مطمئناً بالإيمان، لأن الإكراه لا يتسلط على الاعتقاد في القلب، وليس من الإكراه

(١) النحل: ١٠٦ — ١٠٩.

المداراة والنفاق ، والملق والمزاح والخوف على الرزق أو على المكانة الدنيوية أو غير ذلك من الخواطر الشيطانية ، والإشارة في الآية إلى ذلك واضحة في قوله : (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) وبهذا الاستحباب وقعوا في الكفر الصراح البواح ،واستحقوا العذاب ، فطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وحكم عليهم بالغفلة وكانوا خاسرين في الآخرة ، نسأل الله العفو والعافية ، في الدين والدنيا وحسن الختام .

– ظلمات الشرك –

كل ظلمة في أي ميدان من ميادين الحياة إنما تنبع من الشرك . وكما أن ظلام الليل البهيم يفوّت على السالك إبصار الطريق ورؤية ما حوله من أشياء ، وما في طريقه من عقبات، فكذلك الشرك يحجب المشرك عن إبصار ماينفعه ، وينفع الناس ، ويوقعه في النكبات ، ويمنعه من رؤية الحق ، ويقوده إلى المهالك ، فهو كالظلام الدامس الذي لا يمكنه حتى من رؤية نفسه .

وقد مر بك في هذه الرسالة بعض النماذج من الشرك ، وكيف أظلمت به النفوس ، فأوقعها في أنواع من الشرور والآثام ، وأذاقها ضنك الحياة ووبال العمى عن الصواب ، وحرمها الهدى الذي سعد به أو لو الألباب .

والآن سنريك ظلمة جديدة من ظلمات الشرك طالما تخبط فيها الناس قديماً وحديثاً ، وهي ظلمة التبعية العمياء لأعداء الإسلام ، والمحاكاة لهم في أحوالهم التي لم ينهض عليها من شريعة الإسلام دليل ، والتي تتلاشى فيها شخصية المسلم ، ويبوء بسببها بالخسران المبين .

عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال لهم رسول الله ﷺ : « الله أكبر ! إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون) لتركبن سنن من كان قبلكم ». رواه الترمذي وصححه .

ومن يمعن النظر بدقة في هذا الحديث الشريف يدرك خطورة فكرة التبعية العمياء التي استعظم خطورها رسول الله ﷺ حين قال الصحابة : (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) ، وما ذكره مفسرو الحديث من عبادة الشجرة والتبرك بها وتقديسها غير مفهوم من ألفاظه ، فالذي دل عليه الحديث هو أن المشركين كانوا يعكفون أي يقيمون عند السدرة التي ينوطون أي يعلقون عليها متاعهم وسلاحهم ، ولكن الشرك كامن في كلمة (كما) التي تدل على ذوبان شخصية التابع ، وتعطل فكره ، فهو يميل إلى محاكاة غيره والتشبه به ، واقتفاء آثاره من غير حجة تدل على تبريره . والحديث صرح بهذه الفكرة فكرة التبعية العمياء وذلك في قوله : « الله أكبر إنها السنن » ويعني بها ما ذكره ﷺ في حديث آخر : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن ؟»[1] وهو في الصحيحين عن أبي سعيد . ومع ذلك فقد صرح الحديث

---

(١)

بها في آخره حين قال : (لتركبن سنن من كان قبلكم) أي اليهود والنصارى.

وإذا التفتنا إلى واقعنا نجد أننا مغرقون في التقليد الأعمى لأعدائنا قبل أصدقائنا .

ولنأخذ مثلاً محاكاتنا لهم في الأزياء واللباس وما يسمى (بالموضات) فهنا أناس ذكور أرخوا شعورهم وأرسلوها كالنساء ، وغطوا ثديهم بما يسمى (ستيانات) وتختموا بالذهب ، وهناك نساء قصصن شعورهن ، ولبسن البنطال ، وحسرن عن رؤوسهن ، وكشفن أفخاذهن ولم يعبأن بدينهن .

ولو أردنا أن نستقصي النتائج السيئة الذميمة التي نجمت عن هذا الانسياق الأعمى وراء الآخرين لجمعنا منها الكثير ، وبما أن مخاطر التقليد فاحشة ومتنوعة ، فقد رجحنا أن نعقد له بحثاً مسهباً في رسالة مستقلة نكشف بها حقيقته ، وننبه المسلمين إلى ضرورة الحذر منه .

ونختم رسالتنا هذه بتذكير المسلمين أن يخلصوا دينهم لله امتثالاً لأمره بقوله : (... فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) . الزمر : ٢ و ٣ .

وأذكرك يا أخي المسلم بأن الثبات على اتخاذ رضاء الله غاية يضمن لك سعادة الدنيا والآخرة ، فلا يفوتك من الرغائب المحمودة شيء ؛ لأن استهداف رضاء الله يقودك إلى أسباب الصحة والقوة والعلم والمتعة ، وسعة العيش وصفاء

الفكر ، وراحة الضمير وهناءة الحياة ، وغير ذلك مما يخطر في البال، فنسألك اللهم أن ترد المسلمين إلى دينهم الحق ، وتعيدهم كما كانوا خير أمـــة أخرجت للناس إنك على كل شيء قدير .

* * *

الفهرس